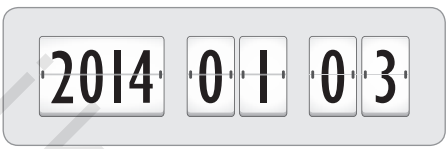

للشروع في الساعة الجديدة قالت هيلاري: عام سعيد يا دكتورة.

وحين أجبتها: شكرًا، هيلاري. عام سعيد جدًّا لك أنت أيضًا! قالت بكآبة: لنتابع مع الأمور! ما رأيك؟ لست ممن يضيعون لحظة واحدة من الوقت.

صمتَتْ قليلًا ثم سألتْ مترددة: إذن ماذا ترين، دكتورة؟ هل تعتقدين أن تصرفات بل غير قابلة للصفح كما أرى؟

فكرت بسؤالها كثيرًا قبل الرد لمعرفتي أنه كان الموضوع الأخطر لتحليلها، وأن حصيلة علاجها كانت متوقفة على جوابي، كذلك كنت أعرف عجزي عن تزويدها بأي تطمينات زائفة؛ لأن العلاج التحليلي كله يجب أن يقوم على الصدق. فكرت بعمق بضع لحظات بمجمل ما كنت قد تعلمته عن الاضطرابات الشبيهة باضطرابات بل في سنواتي العديدة من التدريب والممارسة.

وحين شعرت أخيرًا بأنني جاهزة للإجابة، قلت: من شأن رد فعلي أن يفاجئك، غير أني لن أقول غير الحقيقة، وسأبوح لك– إذن– بما أراه بدقة؛ أنا آسفة للألم الذي لا يكاد يطاق الذي سببه لك ولابنتك سلوك بل، ومتعاطفة معكما بصدق حول ما فرضه عليكما؛ لا يجوز تعريض أحد لمثل هذه المحنة،

ولكن أجدني– رغم دناءة الأمر وخسته– مختلفة معك حول كونه أمرًا أخلاقيًّا مئة بالمئة، ولا أظن أن المسؤولية واقعة كلها على بل؛ إنه مدمن يلوذ بموضوعات إدمانه حين يكون مكروبًا، لكلّ أسلوبُه الخاص في التعامل مع المحن غير المحتملة؛ بعضهم يستقيل كليًّا، آخرون يغرقون في الكحول أو المخدرات، فيما ينحرف بعض ثالث نحو إساءة معاملة أزواجهم أو أولادهم.

يلوذ بل بعلاقات خارج الزواج لعلاج نفسه، لا أظن أن أحدًا كان قادرًا على الصمود أمام جملة التهم المتمادية، المرعبة التي سيقت ضده من دون أن ينكسر بطريقة ما، أشك أنني كنت أستطيع، ليس اللافت أن بل انكفأ، بل إنه كان قادرًا على الاضطلاع بواجبات منصب رئيس الجمهورية بالنجاح الذي أبداه في ذلك في ظل الضغوط الرهيبة التي أُجبر على العيش تحت وطأتها هذه الأعوام العديدة. كلها؛ أنا– مثلًا– ممتنة أبديًّا له على إنجازاته، وأتمنى أن يكون البلد اليوم في مثل الوضع الذي ترك فيه بل المنصب، آمل أن تتذكر أجيال الأمريكيين المستقبلية الوضع الجيد الذي ترك البلد فيه، وأن تنزلق قصة مونيكا لوينسكي إلى سلة الإهمال والنسيان التي تستحقها.

برقت عينا هيلاري، ونظرت إلي نظرة تقدير قائلة حين صارت قادرة على الكلام: شكرًا، دكتورة! أنت الوحيدة التي تضفي معنى، أي معنى، على سلوك بل، الوحيدة التي تتعاطف معه فعلًا، الآخرون جميعًا مشغولون بشجبه وتجريمه، ولم يسأل أحد قبلك عن سبب تورطه في مثل هذه الورطة الحمقاء، هل تقولين إنه كان مجبرًا على السير في الطريق الوحيدة التي يعرفها لإنقاذ نفسه من فيض الويلات الخبيثة التي نزلت عليه؟

أومأت.

أنا واثقة أنك على صواب، وأنا ممتنة، ولطالما قلت إن الجمهوريين كانوا عازمين على ضربه والإجهاز على رئاسته، كادوا ينجحون في ذلك، أستطيع الآن

أن أرى أن القصة لم تكن في الحقيقة إلا نوعًا من النكوص إلى أسلوبه القديم في علاج المشكلات.

أومأتُ ثانية، سعيدة بأنها استطاعت أن ترى الوجه الآخر للعملة، رغم الألم والمهانة.

صمتتْ برهة ثم قالت دامعة العينين: كما فهمت، أنت تعتقدين أن بل إنسان طيب في جوهره، ولم ينحرف إلا نتيجة طوفان الهجمات الجهنمية القاسية التي شنتها المعارضة عليه، إضافة إلى خساراته الشخصية.

أومأت من جديد.

قالت: أستطيع الآن استيعاب قصة مونيكا، أما هذه المرأة الجديدة في تشاباكوا فأكثر من قدرتي على التحمل، ما السبب الذي يجعله بحاجة إلى عشيقة جديدة الآن وقد عادت الأمور جيدة جدًّا برأيك؟

الأمور جيدة بالنسبة إليك أنت يا هيلاري، هل تستطيعين تصور مدى تأثير ترك منصب رئاسة جمهورية الولايات المتحدة مكللًا بالعار والتحول إلى مواطن عادي؟ إلى أين يمكنه أن ينحدر بعد أن كان رئيسًا للجمهورية؟ وهذا كله وهو يرى زوجه متنامية الشعبية والأهمية باطراد، ما من محنة أقسى من تلك بالنسبة إلى رجل نرجسي حتى النخاع؛ إنه يبحث عن علاج ذاتي من جديد وبحاجة إلى تعاطفك معه وإشفاقك عليه.

فكرتْ بعمق بما كنت قد قلته، وردت وخيط من الدموع على وجنتيها: في ضوء رأيك- دكتورة- الذي هو صدى حقيقي لأعمق مشاعري، أعتقد أنني سأهتدي إلى ما يجعلني أغفر له من قلبي.

أخذْتُ نَفَسَ انفراج عميق.